كتاب جديد بالفرنسية عن عمارة بغداد المعاصرة او رؤية مغايرة للعراق

المدى / وكالات

عرفت بغداد بمدينة الف ليلة وليلة وسكنت مخيلة العديدين ممن الهمتهم تلك المغامرات الشهيرة من عهد الخليفة هارون الرشيد، غير ان ملامحها تبدلت كليا في القرن العشرين مع احتفاظها بحجر الآجر المعتمد في الفن المعماري منذ الحضارة السومرية، وهو ما يظهر في كتاب (بغداد، فنون تزيينية، هندسة معمارية بحجر الآجر ١٩٢٠-١٩٥٠).
وان كانت صورة بغداد في العالم تقتصر منذ ثلاثين سنة على الحروب والاعتداءات والدمار، فان سيسيليا بييري المسؤولة في دار التراث (باتريموان) في باريس تكشف عن وجه للمدينة لا يبرزه المراسلون الصحافيون.
وتكتب بييري في مقدمة الكتاب انه: اعتبارا من العشرينيات وبدفع سياسة تخطيط مديني على نطاق واسع، بدأ معلمو البناء البغداديون الذين يعملون كمقاولين وعمال بناء ومزينين ونحاتين في آن واحد، العمل بالتعاون مع مهندسين معماريين بريطانيين لجعل مدينتهم عاصمة مثيرة للإعجاب، والأداة المفضلة لهذه النهضة المدينية كانت حجر الاجر (الطابوق).
ويعرض الكتاب مستعينا بـ٢٥٠ صورة بينها صور كثيرة التقطتها المؤلفة نفسها بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٦، كيف صمم البريطانيون (سياسة خارجية في مجال الهندسة المعمارية والتخطيط المديني).
وتحولت العاصمة العراقية بعد ١٩٢٠ الى انموذج حقيقي لتخطيط مديني وظيفي يأخذ بعين الحسبان ضغط النزوح السكاني الى المدن ومخاطر حصول فيضانات على ضفاف نهر دجلة، مع التمسك بتقليد البناء بحجر الطابوق.
وشيدت في بغداد في تلك الحقبة مبان رسمية ومنشآت كثيرة بينها جسور ومطارات ومحطات ومكاتب ومستشفيات ومدارس وجامعات، اما الاحياء السكنية التي شيدت بعد ١٩٢٠، فلم تعد تمت بصلة الى المدن القديمة التقليدية، بل باتت اشبه بمدن حدائق بشوارعها الواسعة المحفوفة بالنبات.
وصممت هذه المنازل الخفيضة المزينة باحجار الآجر المنحوتة ببراعة ودقة بحيث تقاوم الحر وهي تطل على مشاهد خلابة لنهر دجلة، وما زال من الممكن مشاهدة عدد منها في العديد من الاحياء ولو انها اصبحت تتداعى نتيجة السنوات المتراكمة والاهمال.
وتروي بييري: خطرت لي فكرة هذا الكتاب منذ زيارتي الاولى الى بغداد عام ٢٠٠٣ وانا اتحدث مع صحافيين كانوا يمازحون حول افتقار المدينة الى طابع مميز، اما انا، فرأيت ان المدينة احتفظت بطابعها: تخطيط مديني يقوم على مبان خفيضة ومعدات والوان تقليدية ومبان ذات واجهات منحوتة لا تزال بحال جيدة.
وتضيف: انه تراث مديني حديث بالطبع، لكنه عريق، وان زال، فسوف يزول معه تقليد تزييني يعود الى الاف السنين.

كتاب (بغداد، فنون تزيينية، هندسة معمارية بحجر الآجر ١٩٢٠-١٩٥٠) من تأليف سيسيليا بييري صادر عن دار لاركانج مينوتور).

البـرج العـاجي

فنان في لحظةُ تلاشي الشاعر

فوزي كريم

فأنا أتصاغرُ، حتى لأدنى الثواني
تحارُ بمقدار حجمي...
من مجموعة (السنوات اللقيطة)

كنت أحبّ الرسم والنحت، وأحاولهما منذُ الصبا الأول. وحين أدركتني حرفةُ الأدب تداعيا في الظل، ولكن لم يختفيا. صرتُ أرسم على هوامش الكتب التي أقرأ. أما الموسيقى فطبيعةٌ فيّ، تُضيء الشعر والرسم والنحت، ولا تغيب.
في لندن استعدتُ نشاطي الفني بسبب النشاط الفني المحيط، وتوفّر مواد الفن، ويُسر الحصول عليها. أطلب الكانفس والألوان والفرشَ بوساطة التلفون. وفي الركن المضاء، المطل على الحديقة، ينتصب مَسندُ اللوحة، جاهزاً.
عادةً ما ألجأ للرسم والنحت بالطين في ظرف التوتر النفسي الذي تُمليه عليَّ الكتابةُ والقراءةُ والمتابعةُ الموسيقية. إن هذه الأنشطة تتزاحمُ في الرأس، والجسدُ ساكنٌ، هامد. تتفاعلُ في الأقبية الخفيّة لعالم الباطن، وفيزياءُ الجسد يتعبّأ بالحمم.
حين أشعر بذلك تدفعني الحَاجةُ إلى الرسم والنحت. فهما فاعليةُ الجسد ذاته. أشبه بسباحة في تيار نهر. الفرشاة وسيط في أصابع اليد، ولكن لا سلطان لها عليها. حتى تقفزُ الأصابعُ حين تشاء، لتعبث بمادة الزيت على قماشة الكانفس، وتحاول الرسم. وكأنها تريد أن تتأكد أن الألوان لم تتحوّل إلى مجرد وسائط. وأنها مازالت هي هي. بكل تنوعات وتدرّجات الألوان التي يتشكل منها الجسد الحي.
حركةُ الأصابع داخلَ كتلة الطين، وعلى سطحها اللدائني الطيّع، تنتشلُ الفكرةَ من برودة تجريديّتها داخلَ الرأس، لتجعل منها تكويناً ملء الحواس. ثم تتلمسَ التضاريس، تماماً كما يتم التلمّسُ بين أجساد الأحياء. هذا الفعلُ يُخلي الكيانَ الإنساني من كلِّ التوترات التي تُمليهاَ فاعليةُ الأفكار المجرّدة. يحدثُ هذا معي بصورة جد واضحة. ولذا أرسم وأنحت.
على أني كنتُ أرسمُ وأنحت بصورة متقطّعة. فعلُ إنقاذ من توترات فعل الكتابة والقراءة والإصغاء الموسيقي. وكنتُ أحتفظ بما أرسم وأنحتُ، وكأنهما نتاج نشاط شخصي لا صلة له بما يحدث في عالم الرسم والنحت.
الصديق الشاعر أنتوني هاول يملك صالة The Room لتعليم رقصة التانغو الكلاسيكية المعروفة. انشغلَ زمناً بترجمة قصائدي إلى الإنكليزية، عنَ ترجمة أولية من العربية. وفي البيت اطلع على الأعمال الفنية المُنجزة فأخذه الحماس لإقامة معرضٍ أول في صالته الأنيقة. عرك ترددي الطويل في الدخول إلى بهو الفن والفنانين. وإذ استسلمتُ، جعلتُ الأمرَ جملةً بين يديه.
وافتتحَ المعرضُ مساءً قبل اكثر من جمعتين، وكأنه أقيم فجأة، وفي لحظة من الزمنِ لا إعداد لها.
كان الافتتاح مثيراً للحماس، حتى بيعَ ثُلثي عدد اللوحات المعروضة في الساعة الأولى، وبشيء من التنافس.
كنتُ أنتزع نفسي بجهد من كيان الفنان صاحب العرض، لأكون (أو أعودَ إلى) الشاعر الذي أحسستُ كأني هجرته. الشاعرُ الذي عاودتْهُ مشاعرُ اليتم الخبيئة بقوة وعناد. كنتُ أتطلّعُ إلى اللوحات، لوحةً لوحة، وأحاولُ أن أراها بدائل لقصائدي فتأبى. أحاول أن أوحّدَ بين رسّامها والشاعرَ الذي يقفُ أمامها فيأبيان. كان الجمهور الذي يحتفي بي وسط لوحاتي قد نسي تماماً (أو ربما تناسى عن عمد!) الشاعر الذي كنته. لقد ألقيَ شاعرُ الكلمات إلى مهب الريح. حاولتُ جاهداً أن استجيبَ للصياغة الجديدة، صياغةَ التغريب، فلم أفلح في إقناع النفس بأن أكون فناناً خالصاً في مرايا الجمهور المحيط. الشاعرُ بَي أثقل وطأة من جلمود صخر. ما إن أحرّكه حتى يتوعّدَ بمرثية، ولكن من كلمات. ما إن أستثيره حتى يوهمني بأن كلّ هذا الهاجس الملتبس، ما هو إلا قصيدة جديدة في طور التكوّن.
في البيت بدأتُ القصيدةَ بالفعل. ورقةٌ صغيرةٌ وقلمٌ وصمت، لا غير. كانت الستارةُ على النافذة مُسدلة، وكأنها تشكّل جداراً رابعاً. لوحةٌ للعزلة، وعتمةُ الكون بُعدُها الثالث. وأنا «أتصاغرُ حتى لأدْنى الثواني/ تَحارُ بمقدار حجمي..»، والقصيدةُ تتّسع. لمْ أشك أنها لحظةٌ جليلة، لحظة المخاضَ هذه. على أن الفنان في داخلي، وكأنه ينتقم من غفلتي عنه بالهجران والتلاشي، صارَ يُشعرني باليتم ذاته، الذي عبّأني به الشاعرُ في داخلي، في هجره وتلاشيه، داخلَ صالة العرض التشكيلي The Room، في مساء قبل اكثر من جمعتين.

كان الجمهور الذي يحتفي بي وسط لوحاتي قد نسي تماماً (أو ربما تناسى عن عمد!) الشاعر الذي كنته. لقد أُلقيَ شاعرُ الكلماتِ إلى مهب الريح. حاولتُ جاهداً أن استجيبَ للصياغة الجديدة، صياغة التغريب، فلم أفلح في إقناعِ النفس بأن أكون فناناً خالصاً في مرايا الجمهور المحيط. الشاعرُ بي أثقل وطأة من جلمود صخر. ما إن أحرّكه حتى يتوعّدَ بمرثية، ولكن من كلمات.

في قصر يسكنه الأحياء والأموات معا:

الكاتبة التركية (أليف شافاك) تنسج رداءاً شرقياً ساحراً

ترجمة:عدوية الهلالي

على ضفاف البوسفور، يبني خيال الروائية التركية اليف شافاك قصرا يقطنه سكان غريبو الاطوار ضمن رواية واقعية وسحرية مذهلة تحمل عنوان (قصربونبون).
اكتشف عشاق الادب الروائية التركية بعد تفوقها في روايتها (ابنة اسطنبول) واشتهارها بالكتابة باللغتين التركية والانكليزية.. وتجيد شافاك السيطرة على شخوص رواياتها والفترات الزمنية التي تجري فيها احداثها فهي تسحبها وتمطها باسترخاء وكأنها تمضغ قطعة من اللبان.
وتتنوع شخصيات شافاك بين التركية والارمنية والروسية وعديمة الجنسية وهي تستعير بعضها من عصور سحيقة بينما تنتظر الاخرى ولادتها من ارحام امهاتها..
وتوجد على واجهة قصر بونبون الذي تدور فيه احداث الرواية شرفتان متشابهتان بينما يعلو الباب نتوء على هيئة طاووس يضيف عليه رونقا وبهاءً.
وقام ببناء القصر في زمان قديم زوجان من الروس الهاربين من الثورة فأصبح مكانا لتناسخ الارواح، ذلك انه بني على مقبرة قديمة وهو شيء عادي في اسطنبول، اذ بنيت المدينة على ملايين من القبور ويعيش فيها الاحياء على وفاق مع الموتى.
في حديقة القصر، يقوم نوع آخر من المقابر للزجاجات الفارغة والصراصر ويتذمر السكان باستمرار من وجودها ومن رائحة صندوق قمامة القصر.. ولأن للقطط سبعة ارواح كما هو معروف فمن الممكن ان تكون ارواح القطط موجودة أيضاً وتفتش في النفايات كسواها من القطط الحية.
ومن بين مستاجري غرف القصر ،هناك التوأم جمال وجلال اللذان يشغلان جناحا في الطابق الأرضي تجاورهما معلمة قديمة مهووسة بالتنظيف تدعى هيجين.. وبالقرب من سلالم القصر ،تعيش سيدة عجوز مليئة بالالغاز مولعة بجمع بقايا حطام السفن والانقاض التي تلقي بها امواج البحر على الشاطئ.
ويجد القارئ متعة في التنقل بين طوابق القصر ومد راسه في كل حجرة بفضول طفولي اذ تحرص الكاتبة على ابقاء بعض الابواب موصدة بوجه فضول القارئ محتفظة باسرار قاطنيها حتى نهاية الرواية.
تتناول الكاتبة شافاك في روايتها قصص الحب والصداقات ومشاعر الضغينة وهي تولد وتنمو وتتأجج بين الجيران لكن الاكثر غرابة في روايتها هو استخدام الاثاث –بضمنها صناديق القمامة –كشخوص في الرواية ربما اكثر اهمية من شخوصها ذاتهم ..فبالنسبة لشافاك ، تتفوق الاشياء على البشر في وجودها لأن البشر ميتون حتما !!
وعلى غرار السيدة العجوز غريبة الاطوار المولعة بجمع الخرق والحطام تجمع شافاك كل ما هو غريب ومهجور في قواميس اللغات الفارسية والعربية والتركية لتستخدمه في رواياتها بهدف منح تلك الكلمات حياة جديدة.
ويعترف المترجم الفرنسي للرواية بعجزه عن التصرف بالترجمة لصعوبة اقتحام غرابة اسلوب شافاك ولغتها المزخرفة بكل فسيفساء الشرق والمزينة باستعارات من القرآن والكتاب المقدس..
(قصر بونبون) اذن، هي واحدة من الروايات التي يمكن فتحها لإعادة قراءتها بعد الانتهاء منها لارتشاف المتعة والسحر الشرقي واكتشاف معجزات لا يقوى على نسجها كاتب شرقي بهذه القدرة المذهلة كما فعلت أليف شافاك.

هـــل لـــهـــذا الـــزمـــان بـــطـــلٌ؟

ليرمنتوف

عبد الكريم يحيى الزيباري

كان الناس قديماً يحبون الأبطال ويؤسطرونهم، حتى إذا ماتوا في معركة أو على الفراش، اتخذوا من أصنامهم آلهةً يعبدونهَا، فإذا بروائي شاب يصنع بطلاً شجاعاً لكنه سافل، ذكي وفحلٌ، لكنَّه مخادعٌ وخائن، ضميره حي وإنساني، لكنَّه قاس أشدَّ القسوة، فاهتزَّت صورة البطل، وظلَّت تهتزُّ حتى صار الناس اليوم يحبون الأشياء العادية المألوفة، التي يمرون بها ولا ينتبهون لها، رواية: بطل من هذا الزمان، للشاعر ميخائيل ليرمنتوف، تركت أثراً عميقاً في روح العصر، وفي الإجيال القادمة، يقول ليرمنتوف عن بطله بتشورين: انه صورة تضم رذائل جيلنا كله، بل والأجيال اللاحقة، بسبب قسوة النظام الاجتماعي.
ولد ليرمنتوف عام ١٨١٤، بسبب حزنه على فقدان بوشكين ١٩٣٧، كتبَ قصيدةً حماسية، كان الجزء الأخير فيها هجوماً صريحاً على مؤسسات القيصر الحكومية، المتواطئة في قتل بوشكين، فطُردَ فورا إلى القوقاز كضابط في الفرسان، عندماَ ظَهَرت رواية (بطل من هذا الزمان) أول مرة عام ١٨٤٠، كان ليرمنتوف يبلغ ٢٥ سنة، ولاقى حتفه في مبارزةٍ كان قد وصفها في روايته ص٢٧٤- ٣٠٦، حيث يقف المتبارزان على رأس صخرة جبلية منحدرة، بحيث تكون أدنى إصابة قاتلة تؤدي الى السقوط في الهاوية.
بطل الرواية بتشورين الضابط الروسي، المعتد بذكائه يقول عن نفسه: أكبر نصر تحققه قوتك أن تكون مبعث ألم أو لذَّة لآخر/ الرِّواية: ص٢٢٢)، ويعتذر عن أبنَاء جيلهً: الناس يقرؤون في وجهي غرائز شريرة أنا منها بريء، وما زالوا يفترضونها في حتى نبَتَتْ وتأصّلت، كنتُ خجولا فاتهموني بالمكر، فأصبحتُ كتوماً، ولكنَّ أحداً لم يعطف عليَّ، بل كانوا جميعاً يؤذونني، فأصبحتُ حقوداً أحبُّ الانتقام..كنتُ أشعرُ إنني فوقهم، فقيلَ لي أنني دونهم، فأصبحتُ حسوداً، وكنتُ مهيَّأً أن أحبَّ جميع الناس، فلم يفهمني أحد، فتعلمت الكره/ ص٢٢٨).
ولديه رذيلةٌ أخرى، فهو يحبُّ بعنف، ثمَّ يبرد حبهُ ويتجاهله ويتعامل معه ببرود، ويحطمُ قلوب أصدقائه وحبيباته، وقد يقتلهم، كما قَتَلَ صديقه جروشنيتسكي/ص٣٠٧، في مبارزة احتال أحدهما على الآخر، ثمَّ بعد كل هذه الآلام التي يسببها للآخرين يتساءَل (ترى هل من المُمكن أن تكون رسالتي كلها في هذه الحياة الدنيا أنْ أحطمَ آمال البشر/ ص٣٢٨)، ولكنَّه فوق هذه الرذائل شجاع بسبب إيمانه بالقَدَر الذي استمده من ضابط صربي يؤمن بعقيدة الإسلام في القدر واللوح المحفوظ/ص٣٢٤، ويقول: إنني حين أجهل ما ينتظرني، أقدمُ على الفعل بجسارة أكبر، إذ لا يمكن أنْ يَقَعَ لي ما هو شرٌّ من الموت، والموت لا بدَّ منه في يوم من الأيام/ص٣٤٥).
الرواية منَ الداخل تكشف تناقضات الإنسان المعاصر، بين الأخلاق المثالية والمفهوم النبيل للبطل، وبين الواقع الاجتماعي، وميزتها أنَّها ظهَرَت في عصر كان منحُ البطولة لرجل سافل، شيءٌ مقيت، وكأنَّ الروائي يُشجِّع الرذيلة. وفي الرواية شكلٌ جديد من الخارج، بعيد عن التقليد السائد، حيث النص مُكوَّن من خمس قصص قصيرة:

١- الحسناء الشركسية بيلا
٢- صديقه الضابط المُسِّنْ مكسيم مكسيمتش
٣- مدينة تامان
٤- الأميرة ماري
٥- الصربي الذي يؤمن بالقدر

ولكنَّ ليرمنتوف أجادِ في التلاعب بالتسلسل الزمني، لأنَّ اللوحة كما حَدثَتْ تبدأ من مدينة تامان، ثمَّ الأميرة ماري، ثم صديقه مكسيم، ثم بيلا، ثمَّ رهانه مع القدري، ثمَّ بعد خمس سِنوات يلتقي بتشورين مع صديقه مكسيم لقاءً بارداً، ويريد مسكيم أنْ يعيد له مذكراته، لكنَّه يقول له (افعل بها ما تشاء) وكان اللقاء مُحبطَاً لمكسيم الذي كان ينتظر بتشورين بشوق كبيرَ، ولكن الأخير كان على عجلة من أمره لأنَّه ذاَهبٌ إلى بلادِ فارس، ويكون السارد أو الراوي الرئيس موجوداً، فينتهز الفرصة ويأخذ مذكرات بتشورين التي فيها حكايته مع الأميرة ماري، ورهانه مع الصربي القدري، وعايش مكسيم الذي روى قصة بيلا، وبذلك نكون أمام سرد كرنفالي تتعدد فيه الرواة، وبذلك أعطانا صورة عن المجتمع مع مختلف الشخصيات والآراء والعقائد، ثمَّ يتناهى إلى السارد الرئيس خَبَر موت بتشورين خلال عودته من بلاد فارس.
المغزى كامنٌ في مرض العصر، الذي يسمونه «الضجر» الذي يجعل الشاب يشيخ وهو في ريعان شبابه، فبرغمَ انَّ بتشورين شابٌ غني وضابط في الجيش، وعشقته النساء، لكنَّه أبداً لم يذق طعم السعادة، لأنَّهُ كان يتصرَّف وفق ما يريده المجتمع منه، وذلك لأنَّ الحياة في عصر نيقولاي الأول قيصر روسيا، كانت بلا جدوى، وكانت أقسى سنوات الرجعية في مجتمع ذليل يعاني العبودية، وقد انغرَزَت فيه معاني الجبن والخوف من السلطة التي كانت تبطش أمام أدنى رأي مخالف، فبدا المجتمع خالٍ من أهداف حيَّة أو طمَوحات حقيقية. بتشورين يعامل المرأة كهدف يثير فيه حافز الانتصار في الغزوات في مجتمع فحولي، لا يعرف إلا الأبطال، ويرى النساء كالملك في مباراة شطرنج رومانسية، ويظهر هذا الأمر جليا في حبه لبيلا التي خطَفَها من أبيها، الذي قُتل بسببه، وشقيقها الذي فرَّ ولا تعرف مصيره، فلم يبقَ لها إلا بتشورين، وبرغم ذلك بدأ يتخلّى عنها، وكذلك الأميرة ماري وقريبتها فيرا الزوجة الخائنة، وأظهر ليرمنتوف أنَّ البطل بتشورين يُسَبِّبُ كلَّ هذه الآلام للآخرين من دون قصد حقيقي منه، ويظهر عيِّثه(إنْ كان يجب أنْ أموت، لن تكون خسارة العالم فيَّ عظيمة، وأنا ألستُ ضجراً أعمق الضجر؟ إنني كرجلٍ يتثاءب في حفلةٍ راقصة/ص٢٨٣).